مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية | المجلد 13، العدد1، (السداسي الأول 2021)
ص.81-104

فلسفة الأخلاق في البسملة "إشارات في التَّحْلِيَة وجلب المصلحة"

Philosophy of ethics in the Basmalah "Signs in desalination and bringing goodwill.

د. بكار الحاج جاسم*
جامعة يالوفا، كلية العلوم الإسلامية، تركيا، abbakkar92@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/09/13 تاريخ القبول: 2020/11/12 تاريخ النشر: 2021/03/30

ملخص:

القرآن كتاب كريم، لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي علومه، فقد نهل منه الناس وما زالوا، وفي هذا البحث أقدِّم أنموذجاً معرفياً في فلسفة الأخلاق من خلال البسملة، تلك الآية الكريمة التي كانت فاتحة سور القرآن، وهي فاتحة كل عمل وسلوك، وقد عرف المسلمون أنَّ مَنْ لا يبدأ شأنه بالبسملة فهو أبتر ناقص، فكيف نستفيد من هذه البسملة في الجانب الأخلاقي من حيث التنظير والتطبيق؟ سنحاول استنباط بعض المسائل الأخلاقية ونشير إلى الأسوة العملية في التطبيق من خلال الأنموذج الكامل في الرحمة وهو النبي الخاتمﷺ. فالبسملة تشير إلى جلب المصالح وتحلية النفس الإنسانية بالفضائل، وقد سبق في بحث مستقل الكلام عن الاستعاذة التي تشير إلى دفع المفاسد والتخلية عن الرذائل.

الكلمات المفتاحية: البسملة؛ الرحمة؛ الرحمن الرحيم؛ الأخلاق؛ النبي.

Abstract:

The Qur'an is a Holy book, its wonders do not end, and its wisdom won't be outdated, People had and are still gaining a lot of knowledge through it, In this research, we will review the distinctive ethical features of Basmalah, that Holy phrase all Qur'an Surahs Starts with, and also the phrase Said in the Beginnings of all works and actions, Because Muslims Believes that there is no complete work that does not begin with Basmalah.

---

* المؤلف المرسل

So how can we benefit from Basmalah in the moral aspect, in theory and practice? Through this research, we will discuss some ethical Features related to the Basmalah and we will learn together how it can be applied in in everyday life, through the ideal model of mercy, the Prophet, peace be upon him, also how The Basmalah can bring the best in life and the human soul. In previous independent research, we discussed another holy phrase, which is ‘’ I seek refuge in Allah from the cursed Satan”, A phrase used to ward off evils, and to get help from Allah to abandon sins.

Keywords: Basmalah; Mercy; The Most Compassionate The Most Merciful; Morals; Prophet.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه، أما بعد: فلا ريب في القرآن من حيث ثبوته وعلومه، فهذه من الحقائق البدهية لدى المسلمين جميعاً، وأخباره تتميز بالصدق والثبات، وقد خاطب العامة والخاصة باللفظ الوجيز، الذي يحمل في طياته علوماً ظاهرة يعلمها العامة، وعلوماً مكنونة أشار إليها بإشارات لا يعقلها إلا أولوا الألباب، ولمَّا درست الفلسفة منذ تحضير الماجستير كان الذهن يقارن بين ما يقرأ من الأفكار الفلسفية الإنسانية وبين الإشارات القرآنية، فوجد موافقة في بعضها ومخالفة في بعضها الآخر، وقد لاحظ أنَّ القرآن قد أجاب على الأسئلة الكبرى التي حيَّرت الفكر الإنساني على مدار التاريخ بأسلوب خاص لا يخلو من الاستدلال؛ بل لا يخلو من التحدي على المعارضة والمخالفة، أو على العجز البشري عن إدراك بعض الحقائق، كالحقائق المتعلقة بالألوهية، وحقائق النفس الإنسانية.

ولهذا أقدِّم هذا البحث كأنموذج في فلسفة الأخلاق، من خلال إشارات القرآن، وقد قيل: إنَّ اللبيب من الإشارة يفهم! وقد بدأت بسلسلة أبحاث منطلقاً من فاتحة الكتاب التي استنبطت منها خمسة أبحاث تتعلق بفلسفة الأخلاق، أولها: الاستعاذة إشارات في التخلية ودفع المفسدة، وثانيها: البسملة إشارات في التحلية وجلب المصلحة، وهو موضوع هذا البحث، والتخلية مقدمة على التحلية، ودفع المفسدة مقدَّم على جلب المصلحة. ولعل هذه الطريقة الجامعة بين الفلسفة والقرآن تقدِّم جديداً في هذه الدراسة، وأعجب كلَّ العجب

ممَنْ يعجب بالفكر الإنساني الفلسفي وقد ينبهر به، على الرغم من رجحان الخطأ على الصواب، بدليل الاختلاف الحاصل فيه، وتسفيه بعضهم بعضاً في كثير من المسائل، فمثلاً نجد في كتاب الأخلاق لأرسطو الآراء الكثيرة المختلفة في المسألة الواحدة! بينما لم نجد مسألة واحدة في القرآن قد عارضتها حقيقة علمية، أقول حقيقة لا مجرد نظرية، وما أكثر النظريات المختلفة أيضاً!

والمنهج المتبع في هذا البحث هو المنهج الاستنباطي الذي يشير بطرف خفي إلى المقارنة بالفكر الفلسفي، فهدف البحث الكشف عن إمداد النص القرآني للفكر بالتفلسف المنضبط غير المخالف للنص، فنستمد من النص لأجل النص، وقد يفهم بعضهم أنَّ هذا تعصباً للنص مخالف لمنهج الفلسفة، فهي فكر حر غير مقيد بضوابط وشروط، هكذا قال بعضهم عن الفلسفة، ولما كانت كذلك كثرتْ الآراء التي زادتْ من حيرة الإنسان.

وقد جاءت خطة البحث في تمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة. فأما التمهيد فيشير إلى معاني مفردات العنوان، وأما المبحث الأول فعنوانه البسملة مفتاح العلوم، وأما المبحث الثاني فعنوانه البسملة وتأسيس الأخلاق، وأما المبحث الثالث فعنوان البسملة والرحمة البالغة، وأما المبحث الرابع فعنوانه محمدﷺ الأنموذج الإنساني في الرحمة، وأما الخاتمة فتتضمن أبرز نتائج البحث.

تمهيد عام:

الخُلُقُ بِضَمِّ اللاَّمِ وَسُكُونِهَا: الدِّين والطبْع وَالسَّجِيَّةُ، وَحَقِيقَتُهُ أَنه لِصورة الإِنسان الْبَاطِنَةِ، وَهِيَ نفْسُه وأَوصافها وَمَعَانِيهَا المختصةُ بها[1]. والخُلُق في الاصطلاح الفلسفي هو: "حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فِكْر ولا رَوِيَّة"[2].

البسملة جزء آية من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [سورة النمل30]. وبها تُسْتَفْتَح سور القرآن عدا سورة التوبة[3]. والباء في البسملة متعلقة بمحذوف، يدلُّ عليه الشأنُ الذي يقوم به الإنسان. قال الطبري: "فبه افتتاح أوائل منطقهم، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم، حتى أغنت دلالة ما ظهر من قول القائل: "بسم الله" على ما بطن من مراده الذي هو محذوف"[4]. فقول القائل: عند القراءة "بسم الله"، يعني: أقرأ باسم الله، وعند الكتابة يعني: أكتب باسم الله، وعند الطعام يعني: آكل باسم الله، وعند الشراب يعني: أشرب باسم الله... إلخ. وذكر القشيري أنَّ الباء في "بسم الله" حرف تضمين، أي: بالله ظهرت الحادثات، وبه وجدت المخلوقات، فما من حادث مخلوق إلا بالحق وجوده، ومن الحق بدؤه، وإلى الحق عوده[5].

وفي هذا البحث أشير إلى فلسفة الأخلاق في البسملة التي تتلخص في جلب المصالح وتحلية النفس الإنسانية بالفضائل، وبالدفع والجلب أو بالتخلية والتحلية ينال النَّفْسَ الإنسانية كمالُها، وبذلك تصل إليها سعادتُها. قال الرازي: "ومن اللطائف أن قوله: "أعوذ بالله" إشارة إلى نفي ما لا ينبغي من العقائد والأعمال، وقوله: "بسم الله" إشارة إلى ما ينبغي من الاعتقادات والعمليات، فقوله: "بسم الله" لا يصير معلوماً إلا بعد الوقوف على جميع العقائد الحقة والأعمال الصافية، وهذا هو الترتيب الذي يشهد بصحته العقل الصحيح والحق الصريح"[6].

---

(1) انظر: لسان العرب: ابن منظور: مادة خلق.

(2) تهذيب الأخلاق: مسكويه: 31. وراجع: آراء أهل المدينة الفاضلة: الفارابي: 46. والذريعة إلى مكارم الشريعة: الراغب الأصفهاني: 102.

(3) اختُلِف في البسملة: هل هي آية في أوائل السور أو لا؟ راجع كتب علوم القرآن والتفسير والفقه.

(4) جامع البيان: 114/1.

(5) انظر: لطائف الإشارات: 44/1.

(6) مفاتيح الغيب: 23/1

المبحث الأول: البسملة مفتاح العلوم:

إذا كانت القراءة مفتاح العلوم والمعارف والثقافات والحضارات والأخلاق، فإنَّ مفتاح القراءة الصحيحة هو البسملة؛ لأنها متعلقة بخالق الأكوان والإنسان، وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة في أول آية نزلتْ من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)﴾ [سورة العلق5.1]. فصفات الله تعالى المذكورة هنا: الرب، الخالق، الكريم، العليم، وقد تعلَّقَ بكلِّ صفةٍ ما يناسبها في الإيجاد والإمداد: فتعلقت القراءة بالرب، وتعلق الخَلْق بالخالق، وهاتان الصفتان تشيران إلى نعمة الإيجاد من عدم، فالجهل موات والقراءة إحياء، كمثل الخلق من عدم، ثم أعاد ذكرَ القراءة والخلق متعلقين بالكريم، وأعقبهما بتعليق العلم بالعليم، فأشار بذلك إلى نعمة الإمداد، فالخلق محتاج إلى مدد الخالق دائماً، كمثل إمداد العلم، فعلى الدوام يتعلم الإنسان ما لم يعلم. وذِكْرُ صفةِ الربوبية هنا أفاد معنيين: أحدهما: ربيتك فلزمك القضاء، فلا تتكاسل. والثاني: أن الشروع ملزم للإتمام، وقد ربيتك منذ كذا فكيف أضيعك؟ أي: حين كنت علقةً لم أدع تربيتك، فبعد أن صرت خلقاً نفيساً عارفاً بي كيف أضيعك؟ ثم ذكر: " الَّذِي خَلَقَ "، أي: كنتَ بذاتك وصفاتك معدوماً، ثم صرت موجوداً، فلا بدَّ من خالق، وهذا الخلق والإيجاد تربية، فدَّل ذلك على أني ربك وأنت مربوبي[(1)].

فإن قيل: كيف قال: "خَلَقَ" فلمْ يذكر له مفعولاً، ثم قال خَلَقَ الْإِنْسانَ؟ يقال: إما أنْ لا يُقَدَّر له مفعول، وأنْ يراد أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه، وإما أنْ يُقَدَّر ويراد أنه خلق كلَّ شيء، فيتناول كل مخلوق، وقوله: " خَلَقَ الْإِنْسَانَ " تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق؛ لأن التنزيل إليه، وهو أشرف ما على الأرض... ؛ وقوله: " وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ " أي: الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم، ينعم على عباده النِّعَمَ التي لا تحصى، فما لكرمه غاية ولا أمد، حيث قال: "الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"، فدلّ على كمال كرمه بأنه علَّم عبادَه ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبَّه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم ولا قيدت الحِكَم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب

---

(1) انظر: مفاتيح الغيب: الرازي: 216/32.

الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره ودليل إلا أمر القلم والخط لكفى به[1].

وأشار بالجمع بين خلق الإنسان من علق وبين العلم إلى أنَّ أول أحوال الإنسان كونه علقة، وهي أخس الأشياء، وآخر أمره هو صيرورته عالماً بحقائق الأشياء، وهو أشرف مراتب المخلوقات، فكأنه تعالى يقول: انتقلت من أخس المراتب إلى أعلى المراتب، فلا بدَّ لك من مدبِّر مقدِّر ينقلك من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة الشريفة، ثم فيه تنبيه على أن العلم أشرف الصفات الإنسانية، كأنه تعالى يقول: الإيجاد والإحياء والإقدار والرزق كرمٌ وربوبيةٌ، أما الأكرم هو الذي أعطاك العلم؛ لأن العلم هو النهاية في الشرف[2]. وقوله تعالى: "عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"، بدلُ اشتمالٍ منْ عَلَّمَ بالقلمِ، أي: علَّمه بهِ وبدونِه منَ الأمورِ الكليةِ والجزئيةِ والجليةِ والخفيةِ مالم يخطرُ ببالِه، وفي حذفِ المفعولِ أولاً وإيرادِه بعنوانِ عدمِ المعلوميةِ ثانياً من الدلالةِ عَلى كمالِ قُدرتِه تعالى وكمالِ كَرَمِه، والإشعارِ بأنَّه تعالى يعلمُه من العلوم ما لا تحيطُ بِه العقولُ ما لا يخفى"[3].

وقد حصلت من ذكر التعليم بالقلم والتعليم الأعم إشارةٌ إلى ما يتلقاه الإنسان من التعاليم، سواء كان بالدرس أم بمطالعة الكتب، وأن تحصيل العلوم يعتمد أموراً ثلاثة: أحدها: الأخذ بالمراجعة والمطالعة، وطريقهما الكتابة وقراءة الكتب، فإنَّ بالكتابة أمكن للأمم تدوين آراء علماء البشر ونقلها إلى الأقطار النائية، وفي الأجيال الجائية. والثاني: التلقي من الأفواه بالدرس والإملاء. والثالث: ما تنقدح به العقول من المستنبطات والمخترعات. وأَشْعَرَ قولُه: "مَا لَمْ يَعْلَمْ"، أنَّ العلم مسبوق بالجهل، فكل علم يحصل فهو علم ما لم يكن يعلم من قبل، أي: فلا يُؤَيِّسَنَّك من أن تصير عالماً بالقرآن والشريعة أنك لا تعرف قراءة ما يكتب بالقلم، وفي الآية إشارة إلى الاهتمام بعلم الكتابة، وفي الاقتصار على أمر الرسول - ﷺ - بالقراءة ثم إخباره بأن الله علم الإنسان بالقلم، إيماءٌ إلى استمرار صفة الأمية للنبي - ﷺ - لأنها وصف مكمل لإعجاز القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48)﴾ [سورة العنكبوت][4]. فالنبي - ﷺ - كان أميَّاً لا

---

[1] انظر: الكشاف: الزمخشري: 775/4.

[2] انظر: مفاتيح الغيب: 216/32.

[3] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود: 178/9.

[4] انظر: التحرير والتنوير: ابن عاشور: 441/30.

يقرأ ولا يكتب، ولكنْ "ببسم الله" قدَّم للإنسانية أقوم وأكمل قراءة في حقائق الأشياء، وأتمَّتْ قراءتُه مكارمَ الأخلاق! وتأسستْ على هذه القراءة أرقى حضارة إنسانية عرفها التاريخ، والأمر بالقراءة يتطلب أن يكون الإنسان إمَّا حافظاً لشيء، أو أمامه شيء مكتوب ليقرأه، ولكن رسول الله - ﷺ - ما كان حافظاً لشيء يقرأه، وما كان أمامه كتاب ليقرأ منه، وهو أميّ لا يقرأ ولا يكتب! فكان الرسول - ﷺ - منطقياً مع قدراته، فيقول: ما أنا بقارئ! بينما رسول الله - ﷺ - كان يتحدث ببشريته التي تقول إنه لا يستطيع أن يقرأ كلمة واحدة، ولكن قدرة الله هي التي ستأخذ هذا النبي الذي لا يقرأ ولا يكتب لتجعله معلماً للبشرية كلها إلى يوم القيامة! لأن كل البشر يعلمهم بشر، ولكنْ محمد - ﷺ - سيعلمه الله تعالى؛ ليكون معلماً لأكبر علماء البشر، يأخذون عنه العلم والمعرفة؛ لذلك جاء الجواب من الله تعالى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ". أي: الله تعالى الذي خلق من عدم سيجعلك تقرأ على الناس ما يعجز علماء الدنيا وحضارات الدنيا على أن يأتوا بمثله حتى قيام الساعة؛ ولذلك قال تعالى: "اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ". أي: أنَّ الذي تقرأه سيظل معلماً للإنسانية كلها إلى نهاية الدنيا على الأرض! ولأن المعلم هو الله سبحانه وتعالى جاء بصيغة المبالغة أكرم، فأنت حين تتعلم من بشر فهذا دليل على كرم الله ﷻ؛ لأنه يسر لك العلم على يد بشر مثلك، أمَّا إذا كان الله هو الذي سيعلمك يكون "أكرم"؛ لأنَّ ربك قد رفعك درجة عالية ليعلمك هو سبحانه وتعالى! ولكن هل نحن مطالبون أن نبدأ فقط تلاوة القرآن ببسم الله؟ إننا مطالبون أن نبدأ كل عمل باسم الله؛ لأننا لا بدَّ أن نحترم عطاء الله في كونه، فحين نزرع الأرض مثلاً لا بدَّ أن نبدأ بسم الله؛ لأننا لم نخلق الأرض التي نحرثها، ولا خلقنا البذرة التي نبذرها، ولا أنزلنا الماء من السماء لينمو الزرع، إن الفلاح الذي يمسك الفأس ويرمي البذرة قد يكون أجهل الناس بعناصر الأرض ومحتويات البذرة وما يفعله الماء في التربة لينمو الزرع، فكل ما يفعله الإنسان هو أنه يُعْمِل فِكْرَه المخلوق من الله في المادة المخلوقة من الله بالطاقة التي أوجدها الله في أجسادنا ليتم الزرع، والإنسان لا قدرة له على إرغام الأرض لتعطيه الثمار، ولا قدرة له على خلق الحبة لتنمو وتصبح شجرة، ولا سلطان له على إنزال الماء من السماء، فكأنه حين يبدأ العمل باسم الله يعلن أنه يدخل على هذه الأشياء جميعاً باسم من سخرها له، فالله تبارك وتعالى سخر لنا الكون جميعاً، وأعطانا الدليل على ذلك، فلا تعتقد أن لك قدرة أو ذاتية في هذا الكون، ولا تعتقد أن الأسباب والقوانين في الكون لها ذاتية، بل هي تعمل بقدرة خالقها الذي إن شاء أجراها وإن شاء أوقفها، فمثلاً ترى الجمل

الضخم والفيل الكبير قد يقودهما طفل صغير فيطيعانه، ولكن حيَّة صغيرة الحجم لا يقوى أيُّ إنسان على أن يستأنسها، ولو كنا نفعل ذلك بقدراتنا لكان استئناس الحية سهلاً لصغر حجمها... ؛ إذن كل شيء في هذا الكون مرتبط بإذن الله! أجل إنَّ الكون تحكمه الأسباب، ولكن ارادة الله فوق كل الأسباب، وهو الحي القيوم! ومن رحمة الله - سبحانه وتعالى - أنه علمنا أن نبدأ كلَّ شيء باسم الله؛ لأن الله هو الاسم الجامع لصفات الكمال، والفعل عادة يحتاج إلى صفات متعددة، فحين تبدأ عملاً تحتاج إلى قدرة الله وإلى عونه وإلى رحمته، فلو أن الله - سبحانه وتعالى - لم يخبرنا بالاسم الجامع لكل الصفات، كان علينا أن نحدد الصفات التي نحتاج إليها، كأن نقول باسم الله القوي وباسم الله الرازق وباسم الله المجيب وباسم الله القادر وباسم الله النافع إلى غير ذلك من الأسماء والصفات التي نريد أن نستعين بها، ولكن الله - سبحانه وتعالى - جعلنا نقول بسم الله الجامع لكل هذه الصفات...؛ فإن قيل: هناك كثير من الناس لا يبدأون شؤونهم ببسم الله وهي أعمال ناجحة، وقد تفوق أعمال الذي يسمي الله، فكيف يكون الشأن الذي لا يبدأ ببسم الله أبتراً ناقصاً؟ يقال: إنَّ عطاء الربوبية ليس ممنوعاً عن خلقه، ولكن الدنيا ليست هي الحياة الحقيقية للإنسان، بل الحياة الحقيقية هي الآخرة، فالذي يعمل للدنيا وحدها يأخذ بقدر عطاء الربوبية، والذي يعمل لله تعالى يأخذ بقدر عطائه في الدنيا والآخرة، فمعنى نقصان العمل في حال لم يبدأ ببسم الله، أي: لا جزاء في الآخرة، حيث أُخِذ عطاؤه في الدنيا، وبُتِر أو قُطِع عطاؤه في الآخرة[1]. وقد أشار القرآن إلى هذه المسألة في أكثر من موضع، منها قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (21)﴾ [سورة الإسراء]. ودليل النقصان في معارف العقلاء الذين لم تكن قراءتهم مرتبطة "ببسم الله" إقرارهم على أنفسهم بأنهم لم يسمعوا للدليل النقلي، وأنَّ معارفهم العقلية لم توصلهم إلى الحق، وسيعترفون بهذه الحقيقة، كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10)﴾ [سورة الملك].

---

[1] انظر: تفسير الشعراوي: 41/1.

وبهذا نستنتج أنَّ الخاصة الجامعة للقراءة الصحيحة لعالَم الأكوان والإنسان، هي القراءة المرتبطة بالوحي وباسم الله، وبهذه القراءة تنتظم حركة الإنسان مع حركة النظام الكوني، ويكون التناغم بين الإنسان والأكوان، وتُفْتَح عليه بركاتٌ من السماء والأرض، وتختفي مظاهر الفساد في البر والبحر! ذلك أنَّ الكون كلَّه قائم بالله سبحانه وتعالى: إيجاداً وإمداداً ونظاماً وتسخيراً، ومن ميزات هذه القراءة:

أولاً: تبدأ باسم الله: قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)﴾ [سورة العلق]. ربط القرآن القراءة باسم الرب الخالق الأكرم الذي منه الإيجاد والإمداد، فالمسلم يقرأ آيات الكون من خلال آيات القرآن، ذلك أنَّ كليهما كلمات الله؛ وبذلك يتمكن من إدراك حقائق الأشياء، ويقيم التوازن والاعتدال في جميع مظاهر الحياة.

ثانياً: لا شك فيها: قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2)﴾ [سورة البقرة]. أي: لا شك، فدلالة ثبوته قطعية، وكذا دلالة أخباره، وأما ما يتعلق بالأحكام العملية فالغالب في دلالتها الظن؛ لأجل التيسير ورفع الحرج عن الناس. إذن فالقراءة الصحيحة ما كانت فوق درجة الشك، وإذا كانت متصلة بالإلهيات فلا تقبل إنْ كانت دون درجة اليقين.

ثالثاً: تتميز بالصدق والعدل: قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115)﴾ [سورة الأنعام]. فالصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام. قال الرازي: "وإذا عرفت انحصار مباحث القرآن في هذين القسمين فنقول: قال تعالى: وتمت كلمة ربك صدقاً إن كان من باب الخبر، وعدلاً إن كان من باب التكاليف، وهذا ضبط في غاية الحسن"[1].

رابعاً: الوقوف على دليلٍ معتبر: قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36)﴾ [سورة الإسراء]. فالقراءة الصحيحة هي المؤسَّسة على قاعدة: "إنْ كنت ناقلاً فالصحة، أو مدعياً فالدليل".

خامساً: هي القراءة الأصح والأقوم: قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9)﴾ [سورة الإسراء]. كلمة "أقوم" على وزن أفعل التفضيل، فهناك قراءات صحيحة فاضلة، ولكن القراءة المرتبطة

---

[1] مفاتيح الغيب: 125/13.

بالوحي هي الأقوم، أي: الأصح والأفضل. قال الرازي: "قيل: كل العلوم مندرج في الكتب الأربعة، وعلومها في القرآن، وعلوم القرآن في الفاتحة، وعلوم الفاتحة في "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ"، وعلومها في الباء من بسم الله. قلت: لأنَّ المقصود من كل العلوم وصول العبد إلى الرب، وهذا الباء باء الإلصاق فهو يلصق العبد بالرب، فهو كمال المقصود...؛ سمعت الشيخ الوالد ضياء الدين عمر ﷺ يقول: سمعت الشيخ أبا القاسم الأنصاري يقول: حضر الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير الميهني مع الأستاذ أبي القاسم القشيري فقال الأستاذ القشيري: المحققون قالوا ما رأينا شيئاً إلا ورأينا الله بعده، فقال الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير: ذاك مقام المريدين أما المحققون فإنهم ما رأوا شيئاً إلا وكانوا قد رأوا الله قبله. قلت: وتحقيق الكلام أنَّ الانتقال من المخلوق إلى الخالق إشارة إلى برهان الإنّ، والنزول من الخالق إلى المخلوق برهان اللِّمّ، ومعلوم أن برهان اللِّم أشرف، وإذا ثبت هذا فمن أضمر الفعل أولاً فكأنه انتقل من رؤية فعله إلى رؤية وجوب الاستعانة باسم الله، ومن قال: باسم الله ثم أضمر الفعل ثانياً فكأنه رأى وجوب الاستعانة بالله ثم نزل منه إلى أحوال نفسه"[1].

وبهذه القراءة المُبْتَدِئة "ببسم الله" تمتزج العلوم بالأخلاق، وبهذا الامتزاج تُبْنَى الحضارات الإنسانية الخَيِّرَة، وفي المبحث الآتي أتكلم عن إشارات البسملة في تأسيس الأخلاق.

المبحث الثاني: البسملة وتأسيس الأخلاق:

لكل بناء أساس يرتكز عليه، وهناك تناسب مُطَّرِد بين قوة الأساس وقوة البناء، وكذلك لكل إنسان أساس تُبْنَى عليه نفسُه الإنسانية، وقد أشار القرآن إلى الأساس الأقوى الجامع في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109)﴾ [سورة التوبة]. قال القشيري: "الذي ضيّع الأصول في ابتدائه حُرِمَ الوصول في انتهائه، والذي لم يحكم الأساس في بنائه سقط السَّقف على جدرانه"[2] . فالتقوى والرضوان أساس بناء النفس الإنسانية، وهما متعلقان بالبسملة التي هي مبدأ الأعمال الصالحة من التقوى

[1] مفاتيح الغيب: 98/1.

[2] لطائف الإشارات: 62/2.

والرضوان، وغير ذلك من الأقوال والأفعال؛ ذلك أنَّ كلَّ أمرٍ لا يبدأ ببسم الله فهو أبتر، كما ورد في الأثر[1]. والتقوى تعني: ترك المنهيات وفعل المأمورات، أي: التخلية عن الرذائل والتحلية بالفضائل. والرضوان: مصدر من رضي، يعني: كثير الرضا، وهو سكون القلب بعطاء الربوبية. ومن جملة ما قيل في مقام الرضا: أنَّ رِضا العبدِ عن الله تعالى: أَلا يكره ما يجرى به قضاؤُه، ورضا الله تعالى عن العبد أَن يراه مؤتمرًا لأَمر منتهيًا عن نهيه. وطريق الرِّضا طريق مختصرة قريبة جدًّا موصلة إِلى أَجلِّ غاية، ولكنَّ فيها مشقة، ومع ذلك فليست مَشَقَّتها بأَصعب من مَشَقَّة طريق المجاهدة، ولا فيها من المفاوز والعَقَبات ما فيها، وإِنما عقبتها همّة عالية ونفس زكيّة، وتوطين النفس على كلِّ ما يَرِدُ عليها من الله، ويسهِّل ذلك على العبد علمُه بضعفه وعجزه، ورحمةُ ربِّه وبرُّه به. فطريق الرضا والمحبّة تُسَيِّر العبد وهو مستلْقٍ على فراشه، فيصبح أَمام الرّكب بمراحل، وثمرة الرّضا: الفرح والسّرور بالله تعالى[2].

ولا أريد الاستطراد في الكلام عن التقوى والرضا، وإنما أشرنا إليهما من حيث كونهما أساس البناء الإنساني، وأنَّ الأفعال المتصلة بهما مرتبطة بالبسملة، ونذكر - فيما يأتي - بعض إشارات البسملة في الأخلاق من حيث المعنى العام، وذلك من خلال بعض الأمثلة، وتصورنا للمواقف اللازمة إذا اقترنت بها البسملة، فنقول: هل رأيت قاتلاً يقول عند قتله لإنسان: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ؟ وماذا يكون لو تذكر البسملة؟ وهل رأيت سارقاً يقول عند سرقته: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ؟ وماذا يكون لو تذكر البسملة؟ وهل رأيت مُدَخِّناً يقول عند تدخينه: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ؟ وماذا يكون لو تذكر البسملة؟ إذن فالأخلاق السيئة لا تبدأ بالبسملة، ولو تَذَكَّرَ الإنسان البسملة لترك تلك الأخلاق! ويشير إلى هذه المسألة قول النبيﷺ:

---

[1] قال الإمام النووي: "حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول اللهﷺ قال: كل أمر ذي بال لا يبدأ بالحمد لله فهو أقطع، وفي رواية بحمد الله، وفي رواية بالحمد فهو أقطع، وفي رواية أجذم، وفي رواية لا يبدأ فيه بذكر الله، وفي رواية ببسم الله الرحمن الرحيم، روينا كل هذه في كتاب الأربعين للحافظ عبد القادر الرهاوي سماعاً من صاحبه الشيخ أبي محمد عبد الرحمن بن سالم الأنباري عنه، وروينا فيه أيضاً من رواية كعب بن مالك الصحابي ﷺ، والمشهور رواية أبي هريرة، وهذا الحديث حسن، رواه أبو داود وابن ماجه في سننهما، ورواه النسائي في كتابه عمل اليوم والليلة، روى موصولاً ومرسلاً، ورواية الموصول إسنادها جيد". شرح النووي على مسلم: 43/1.

[2] انظر: مدارج السالكين: ابن القيم: 169/2، وبصائر ذوي التمييز: الفيروزآبادي: 77/3.

(لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)[1] . قال ابن بطال: "والصواب عندنا قول من قال: يزول عنه الاسم الذى هو بمعنى المدح إلى الاسم الذى هو بمعنى الذم، فيقال له: فاجر فاسق زان سارق، ولا خلاف بين جميع الأمة أن ذلك من أسمائه ما لم تظهر منه التوبة من الكبيرة"[2] .

هذه بعض الأمثلة في أثر البسملة في التخلية عن الأخلاق السيئة، وبالمقابل فإنَّ للبسملة أثراً في التحلية بالأخلاق الحسنة، فإذا خرج الإنسان من بيته للعمل فقال: "بسم الله"، فسيدفعه صدق القول فيها إلى الصدق والإخلاص في العمل، وكذلك إذا دخل السوق فقال: "بسم الله"، فسيشتري ويبيع بصدق وإخلاص، وأيضاً إذا دخل المدرسة والجامعة فقال: "بسم الله"، فسيعلِّم ويتعلم بصدق وإخلاص...؛ وهكذا ستكون أفعال الإنسانِ كلُّها قائمةً على الصدق والإخلاص حين يبدأها بالبسملة. إذن فالبسملة تُؤَسِّسُ للأخلاق الحسنة، وذلك من جهتين: الأولى: من جهة التخلية عن الخُلُق السيء. والثانية: من جهة التحلية بالخُلُق الحسن. وهذا التأسيس للأخلاق من حيث تعلق الإنسان بالبسملة من جهة الصياغة العامة، وفيما يأتي أتكلم عن أثر الأسماء الحسنى الواردة في صياغة البسملة في الأخلاق:

المبحث الثالث: البسملة والرحمة البالغة:

علاقة الأسماء الحسنى بالأخلاق تتجلى من حيث التخلق بصفات الجمال، والتعلق بصفات الجلال، والتحقق بصفات الكمال، وقد ذكر الرازي أنَّ للنفس الناطقة قوتين، نظرية وعملية، فالقوة النظرية كمالها في التعظيم لأمر الله، والقوة العملية كمالها في الشفقة على خلق الله؛ ذلك أنَّ إفاضة الخير والرحمة من صفات الحق ﷻ، والسعي في تحصيل هذه الصفة بقدر القدرة تخلق بأخلاق الله، وذلك منتهى كمالات الإنسانية[3]. ونقلَ عن الغزالي قوله: "تخلَّقوا بأخلاق الله"، وقال: هذا يقتضي أنْ يكون للعبد من كلِّ اسم من أسماء الله تعالى حظٌّ يليق به، والحكماء المتقدمون قالوا أيضاً: الفلسفة هي التشبه بالإله

[1] أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله.

[2] شرح صحيح البخاري: 392/8.

[3] انظر: مفاتيح الغيب: 78/16.

بقدر الطاقة البشرية[1]. وإذا كانت معاقد الخيرات وتكليف الشارع بها على كثرتها محصورةً في أمرين: صدق مع الحق، وخُلُق مع الخَلْق[2]. فإنَّ البسملة تشير إلى هذين القسمين، فاسم الجلالة "الله" يشير إلى القسم الأول، واسما "الرحمن الرحيم" يشيران إلى القسم الثاني. فالأسماء الحسنى الواردة في البسملة ثلاثة: "الله، الرحمن، الرحيم"، فماذا تعني هذه الأسماء؟ ولماذا اختصتْ البسملة بهذه الأسماء دون سِواها؟ وما أثرها في علم الأخلاق؟

أولاً: اسم الجلالة "الله": اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المتفرد بالوجود الحقيقي، فإنَّ كل موجود سواه غير مستحق الوجود بذاته، وإنما استفاد الوجود منه؛ وينبغي أن يكون حظ العبد من هذا الاسم: التأله، أي: يكون مستغرق القلب والهمة بالله تعالى، لا يرى غيره، ولا يلتفت إلى سواه، ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه، وكيف لا يكون كذلك وقد فهم من هذا الاسم أنه الموجود الحقيقي الحق، وكل ما سواه فانٍ وهالكٌ وباطلٌ إلا به[3].

ثانياً: الرحمن الرحيم: الرَّحْمَةُ رقّة تقتضي الإحسان إلى الْمَرْحُومِ، وقد تستعمل تارة في الرّقّة المجرّدة، وتارة في الإحسان المجرّد عن الرّقّة، وإذا وصف به الله تعالى فليس يراد به إلّا الإحسان المجرّد دون الرّقّة، وعلى هذا فالرَّحْمَةَ من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميّين رقّة وتعطّف. والرَّحْمَنُ لا يطلق إلّا على الله تعالى من حيث إنّ معناه لا يصحّ إلّا له، إذ هو الذي وسع كلّ شيء رَحْمَةً. والرَّحِيمُ يستعمل في غيره، وهو الذي كثرت رحمته، قال تعالى في صفة رسوله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:128][4] . "وحظ العبد من اسم الرحمن أن يرحم عباد الله الغافلين فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله عز وجل بالوعظ والنصح بطريق اللطف دون العنف، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الإزراء، وأن يكون كل معصية تجري في العالم كمصيبة له في نفسه، فلا يألو جهداً في إزالتها بقدر وسعه، رحمةً لذلك العاصي أن يتعرض لسخط الله ويستحق البعد من جواره. وحظه من اسم الرحيم أن لا يدع فاقة لمحتاج إلا يسدها بقدر طاقته، ولا يترك فقيراً في جواره وبلده إلا ويقوم بتعهده ودفع فقره، إما بماله

---

[1] انظر: لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات: الرازي: 127.

[2] انظر: مفاتيح الغيب:254/11، 320.

[3] انظر: المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: الغزالي: 61.

[4] انظر: المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني: مادة رحم.

أو جاهه أو السعي في حقه بالشفاعة إلى غيره، فإنْ عجز عن جميع ذلك فيعينه بالدعاء وإظهار الحزن بسبب حاجته رقةً عليه وعطفاً، حتى كأنه مساهم له في ضره وحاجته سؤال وجوابه"[1]. وقد وردت كلمة الرحمن والرحيم والرحمة في مواضع كثيرة في القرآن، نقف عند بعضها لنستنتج مبادئ عامة في علم الأخلاق:

أ. ذكر القرآن اسم الرحمن في سياق: الألوهية، والربوبية، والقرآن، والعرش، وعالَم الغيب والشهادة، والحكمة في الخلق، والآخرة:

أولاً: الرحمن والألوهية والربوبية: قال تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163)﴾ [سورة البقرة]. خصَّ هذا الموضع بذكر الرحمن الرحيم؛ لأنَّ ذكر الألوهية يفيد القهر والعلو، فعقبهما بذكر هذه المبالغة في الرحمة؛ ترويحاً للقلوب عن هيبة الألوهية، وإشعاراً بأنَّ رحمته سبقت غضبه، وأنه ما خلق الخلق إلا للرحمة والإحسان (1). وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ [سورة طه:90]. وقال تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [سورة النبأ:37]. الرَّبُّ في الأصل من التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدّ التمام[2]. فوصفُه بالرحمانية إثرَ وصفِه بخالقية السموات والأرض؛ للإيذان بأنَّ ربوبيتَه تعالى بطريق الرحمةِ[3]. لهذا فإنَّ الأولى بالإنسان ـ الذي لا يملك من أمره شيئاً إلا بأمر الخالقﷻ ـ أنْ يكون رحيماً مع نفسه ومع الناس جميعاً، وكيف لا يتصف بهذه الصفة وهو مضطرٌ إلى الاجتماع الإنساني؟

ثانياً: الرحمن والقرآن: قال تعالى: ﴿حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2)﴾[سورة فصلت]. وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)﴾ [سورة الرحمن]. ذِكْرُ الرحمنِ في سياق تعليم القرآن وخلق الإنسان وتعليمه البيان يشير إلى نعمتي الإيجاد والإمداد، فإيجاد الإنسان نعمة، وإمداده بالبيان نعمة، والإنسان يحتاج إلى دستور وقانون ينظِّم علاقاته ويحفظ حياته، وأقوم سبيل في تحقيق هذه الغاية أنْ يأخذ قانونه ممَنْ خلقه، فعلَّم الرحمنُ الإنسانَ هذا القانون عن طريق رسله، وختم بالقرآن الذي هو القانون الخاتم العام. قال أبو السعود: "الرحمن علَّم القرآن؛ لأنه أعظم

(1) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: الغزالي: 64.

(2) انظر: المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني: مادة رب.

(3) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 176/8.

النعم شأناً وأرفعُها مكاناً، كيفَ لا؟ وهُو مدارٌ للسعادةِ الدينيةِ والدنيويةِ، عِيَارٌ على سائرِ الكتبِ السماويةِ، ما منْ مرصدٍ يرنُو إليه أحداقُ الأممِ إلا وهُو منشؤُه ومناطُه، ولا مقصدٍ يمتدُّ إليه أعناقُ الهممِ إلا وهُو منهجُه وصراطُه، وإسنادُ تعليمِه إلى اسمِ الرَّحمنِ للإيذانِ بأنه من آثار الرحمةِ الواسعةِ وأحكامِها، وقد اقتُصرَ على ذكرِه تنبيهاً على أصالتِه وجلالةِ قدرِه، ثمَّ قيل: خَلَقَ الإنسان عَلَّمَهُ البيان، تعييناً للمعلَّم وتبييناً لكيفيةِ التعليمِ، والمرادُ بخلقِ الإنسانِ إنشاؤُه على ما هُو عليه منَ القُوى الظاهرةِ والباطنةِ، والبيانُ هو التعبيرُ عمَّا في الضميرِ، وليسَ المرادُ بتعليمِه مجردَ تمكينِ الإنسانِ من بيانِ نفسِه، بل منْهُ ومنْ فهمِ بيانِ غيرِه أيضاً، إذْ هو الذي يدورُ عليه تعليمُ القُرآنِ"[1].

رابعاً: الرحمن والعرش: قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه:5]. العرش منتهى العظمة في المخلوقات، وقد ورد ذكره في سياق التسخير والتدبير، ووصِفَ بالعظيم والكريم، وفي هذا إشارة إلى رحمانية الخالق بخلقه، فالرحمن استوى على العرش العظيم الكريم، فالتدبير من السماء إلى الأرض هو تدبير الرحمن، فهلا وقف الإنسان عند حد الأدب والتخلق بصفة الرحمة إذا استوى على عرشه، وسخَّر رعيته من بني جنسه.

خامساً: الرحمن والحكمة في الخلق: قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4)﴾ [سورة الملك]. تكللتْ الأكوان بالحكمة والجمال، لمَّا تجلى لها ربُّها باسم الرحمن، وهكذا يكون شأن الإنسان، إذا تخلَّق بالفضائل والإحسان، وتمامها وكمالها بمنهاج النبوة والقرآن، كما تقدم في بيان قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)﴾ [سورة الرحمن].

سادساً: الرحمن والآخرة: يوم القيامة يوم أهوال وشدائد، وقد وصفه القرآن بقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)﴾ [سورة الحج]. لهذا يتجلى الله تعالى للمخلوقات باسمه الرحمن، والآيات والأحاديث كثيرة في الرحمة الإلهية بالخلق في الآخرة، منها: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 176/8.

مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87)﴾ [سورة مريم]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96)﴾ [سورة مريم]. وقوله ﷺ: (إِنَّ اللهَ خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِائَةَ رَحْمَةٍ كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ رَحْمَةً، فَبِهَا تَعْطِفُ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا، وَالْوَحْشُ وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ)[1].

ثانياً: الرحيم: ذكر الرحيم بعد الرحمن من باب ذكر الخاص بعد العام، فمصدرهما الرحمة، ولكن تعلق الرحمن عام في الخلق جميعاً، وتعلق الرحيم خاص بالمؤمنين، أو بمعنى آخر: تعلق الرحمن بالأحكام الكونية، وتعلق الرحيم بالأحكام التكليفية؛ لهذا نجد أنَّ اسم الرحيم غالباً يأتي في سياق تخفيف الأحكام التكليفية، والاستغفار والتوبة، أذكر من ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173)﴾ [سورة البقرة]. وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90)﴾ [سورة هود]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (110)﴾ [سورة النساء]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53)﴾ [سورة الزمر].

ومن مظاهر الرحمة ما جاء في ذكر الشفاعة: (فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لاَ تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ - أَوْ خَرْدَلَةٍ - مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ، فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى

[1] أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب التوبة، بَابٌ فِي سِعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَأَنَّهَا سَبَقَتْ غَضَبَهُ.

أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ...؛ ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي، وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا الله)[1] .

ونستنتج من سياقات اسم الرحمن في الأحكام التكليفية والتوبة في مجال علم الأخلاق أنَّ مَنْ تولى شأناً من شؤون الناس فليكن رحيماً في تكليفهم، وليكن رحيماً في تأديبهم إنْ أساؤوا، وإلى هذا الخُلُق أشار النبيﷺ بقوله: (إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ الله تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ)[2] .

ثالثاً: الرحمة: تتعلق الرحمة بنعمة الإيجاد والإمداد، وهي مقصد الأنبياء والحكماء. ومَنْ يتتبع نصوص القرآن والسُّنَّة يجدْ أنَّ الرحمة الربانية هي الفَلك التي تدور حوله تلك النصوص، وأذكر بعض الأمثلة على ذلك:

أولاً: الرحمة والمبدأ والمعاد: قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12)﴾ [سورة الأنعام]. ذكر مبدأ الخلق والمعاد ووسَّط بينهما بالرحمة، وطَمَّأَنَ خَلْقَه بأنْ كتب على نفسه الرحمة، بمحض الفضل والإكرام، وكتابة الرحمة هي رحمة! قال النبيﷺ: (لَمَّا قَضَى الله الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي)[3] .

ثانياً: الرحمة مفتاح التوبة: قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54)﴾ [سورة الأنعام]. إنَّ فتح باب التوبة من تجليات رحمة الخالق بالخلق؛ حتى لا يستشري الفساد في الأرض. قال النبيﷺ: (قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا

[1] هذا جزء من الحديث، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، بَابُ كَلاَمِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ الأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب بدء الخلق، بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}[الروم: 27].

ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً)[1].

ثالثاً: الرحمة والحِلم: قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (58)﴾ [سورة الكهف]. من تجليات رحمة الخالق بالخلق حِلْمُه عليهم، قال النبيﷺ: (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمْلِي لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ، إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)[2].

رابعاً: التخلق بالرحمة: تعدُّ البسملة من أقوم السبل في التخلق بالرحمة الربانية، ولأجل ذلك حثَّتْ الشريعة على أنْ تكون أفعال الإنسان مرتبطة بها، حتى في أخصِّ الخصوصيات نلاحظ أنَّ الشارع قد حثَّ على البسملة. فقال النبيﷺ: (أَمَا إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ وَقَالَ بِسْمِ اللهِ اللهمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا فَرُزِقَا وَلَدًا لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ)[3]. ومن أقوالهﷺ في الحث على التخلق بالرحمة: قولهﷺ:(الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللهُ)[4]. وقولهﷺ: (لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ)[5]. وقولهﷺ: (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبَ مِنَ العَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ فَسَقَى الكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أَجْرًا؟ فَقَالَ: نَعَمْ فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ)[6].

(1) أخرجه الترمذي في سننه: أبواب الدعوات عن رسول اللهﷺ، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر في رحمة لله بعباده. وقال: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ".

(2) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده.

(4) أخرجه الترمذي في سننه: أبواب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في رحمة المسلمين. وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(5) أخرجه الترمذي في سننه: أبواب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في رحمة المسلمين. وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

(6) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم.

وقوله ﷺ: (عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ لاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلاَ سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا وَلاَ هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ)[1].

وبهذا نلاحظ أنَّ الإنسان إذا ارتبط من خلال البسملة بالله الرحمن الرحيم، ففقه مقاصدها، وتحقق بكمالها، فإنه يصير إنساناً ربانياً متخلِّقاً بصفات الرحمن الرحيم، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76)﴾ [سورة الفرقان].

هذه بعض صفات عباد الرحمن الذين تخلّقوا بصفات الجمال، فحسنتْ بذلك أخلاقُهم وصاروا ربانيين! وبالمقابل فمن يبتعد عن الرحمن فإنَّه يبتعد عن كثير من الأخلاق الحسنة؛ بل يقوى شيطانُه حتى يتخلَّق بالأخلاق السيئة، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37)﴾ [سورة الزخرف]. هذه بعض دلائل القرآن في الرحمة الربانية وآثارها الكونية، فقد أكدتْ أهميةَ البسملةِ في حياة الإنسان عموماً وفي الأخلاق خصوصاً، وذلك إذا تعلق الإنسان بها، فلا يتحرك حركةً إلا ببسم الله الرحمن الرحيم، فيصل بها إلى الربانية ومشاهدة الخلق بصفات الجمال الرباني، حتى إذا غضب فغضبه رحمة، كحال الوالد الرحيم بولده، فحين يعاقبه فعقابه رحمة، إذْ يريد بذلك أنْ يرقيه إلى كمال

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار.

الإنسانية، وقد جعل الله الرحمن الرحيم من رسولهﷺ أنموذجاً للعالَمين في الرحمة، وبرحمته نختم الكلام عن البسملة:

المبحث الرابع: محمدﷺ الأنموذج الإنساني في الرحمة:

تجلَّت الرحمة الربانية في الأنبياء عليهم السلام عموماً، وفي سيدهم محمدﷺ خصوصاً، فهو الإنسان الكامل في القوى النظرية والعملية، وكمال هذه القوى تجلَّتْ في الرحمة! ودلائل القرآن والسنة على ذلك كثيرة، منها:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107)﴾ [سورة الأنبياء]. فالنبيﷺ رحمةٌ عامة؛ لأنه أشرف الأنبياء وأكرمهم وخاتمهم، فلا وَحْيَ ولا رسالة ولا إكمال من بعده؛ ذلك أنَّ رحمة كلِّ نبي تأخذ حظها من الحقﷻ بمقدار مهمته، ومهمة النبي الخاتمﷺ أكرم المهمات[1]. وقد صيغت هذه الآية بأبلغ نظم؛ إذ اشتملت بوجازة ألفاظها على ذكر الرسولﷺ، ومُرْسِله، والمرسَل إليهم، والرسالة، وأوصاف هؤلاء الأربعة، مع إفادة عموم الأحوال، واستغراق المرسَل إليهم، وخصوصية الحصر، وتنكير رحمة للتعظيم. وانتصاب "رحمة" على أنه حال من ضمير المخاطَب يجعله وصفاً من أوصافه، فإذا انضم إلى ذلك انحصار الموصوف في هذه الصفة، صار من قصر الموصوف على الصفة، ففيه إيماءٌ لطيفٌ إلى أن الرسول اتحد بالرحمة وانحصر فيها، ومن المعلوم أن عنوان الرسولية ملازم له في سائر أحواله، فصار وجوده رحمة وسائر أكوانه رحمة، ووقوع الوصف مصدراً يفيد المبالغة في هذا الاتحاد، بحيث تكون الرحمة صفة متمكنة من إرساله، وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول: تخلق نفسه الزكية بخُلُق الرحمة. والثاني: إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته[2].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)﴾ [سورة آل عمران]. قال الرازي: "إن المقصود من البعثة أن يبلغ

---

[1] انظر: تفسير الشعراوي: 9019/15.

[2] انظر: التحرير والتنوير: ابن عاشور: 165/17.

الرسول تكاليف الله إلى الخلق، وهذا المقصود لا يتم إلا إذا مالت قلوبهم إليه وسكنت نفوسهم لديه، وهذا المقصود لا يتم إلا إذا كان رحيماً كريماً، يتجاوز عن ذنبهم، ويعفو عن إساءتهم، ويخصهم بوجوه البر والمكرمة والشفقة، فلهذه الأسباب وجب أن يكون الرسول مبرأ عن سوء الخلق، وكما يكون كذلك وجب أن يكون غير غليظ القلب، بل يكون كثير الميل إلى إعانة الضعفاء، كثير القيام بإعانة الفقراء، كثير التجاوز عن سيئاتهم، كثير الصفح عن زلاتهم، فلهذا المعنى قال: "وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ"، ولو انفضوا من حولك فات المقصود من البعثة والرسالة"[1]. ثم أشار إلى دقيقة، فذكر أنَّه تعالى منعه من الغلظة في هذه الآية، وأمره بالغلظة في قوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73)﴾ [سورة التوبة]. وهذا كقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة المائدة:54]. وقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الفتح:29]. وتحقيق القول فيه أن طرفي الإفراط والتفريط مذمومان، والفضيلة في الوسط، فورود الأمر بالتغليظ تارة، وأخرى بالنهي عنه، إنما كان لأجل أن يتباعد عن الإفراط والتفريط، فيبقى على الوسط الذي هو الصراط المستقيم؛ فلهذا مدح الله الوسط فقال: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [سورة البقرة: 143][2].

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128)﴾ [سورة التوبة]. وصف الرسولﷺ في هذه الآية بخمسة أنواع من الصفات:

الصفة الأولى: رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ: ذكر هذه الصفة للتنبيه على طهارته، كأنه قيل: هو من عشيرتكم تعرفونه بالصدق والأمانة والعفاف والصيانة، وتعرفون كونه حريصاً على دفع الآفات عنكم، وإيصال الخيرات إليكم، وإرسال من هذه حالته وصفته يكون من أعظم نعم الله عليكم.

---

[1] مفاتيح الغيب: 407/9.

[2] انظر: مفاتيح الغيب: 407/9.

الصفة الثانية: عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ: العزة: هي الغلبة والشدة، والعنت: الشدة التي لا يمكنه الخروج منها، والمعنى: عزيز عليه عنتُكم، أي: يشق عليه مكروهكم، وأولى المكاره بالدفع مكروه عقاب الله تعالى، وهو إنما أرسل ليدفع هذا المكروه.

الصفة الثالثة: حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ: الحرص يمتنع أن يكون متعلقاً بذواتهم، بل المراد حريص على إيصال الخيرات إليكم في الدنيا والآخرة.

الصفة الرابعة والخامسة: بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ: سماه الله تعالى باسمين من أسمائه[1]. وهما صيغتا مبالغة، والرأفة: شدة الرحمة، وقدَّم المؤمنين ليفيد الحصر، للاهتمام بالمؤمنين في توجه صفتي رأفته ورحمته بهم، وأما رحمته العامة الثابتة بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107)﴾ [سورة الأنبياء]. فهي رحمة مشوبة بشدة على غير المؤمنين، فهو بالنسبة لغير المؤمنين رائف وراحم، ولا يقال: بهم رؤوف رحيم، على سبيل المبالغة، فتنبَّه (2). فبهذه الرحمة كان النبي - ﷺ - على خُلُق عظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)﴾ [سورة القلم]. وبهذه الرحمة أُرسِلَ ليتمم مكارم الأخلاق، يتممها بالتأييد والتصحيح والتأسيس والتطبيق؛ ولذلك كان الأسوة الحسنة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21)﴾ [سورة الأحزاب].

الخاتمة:

بعد هذه الإشارات الأخلاقية من خلال البسملة، أثبت أبرز النتائج:

1ـ البسملة هي الحبل المتين بين الخالق والمخلوق، إذا ارتبط بها الإنسان حسنتْ أخلاقه، فلا يفعل القبيح باسم الله، وإذا فعل الحسن أتقنه. ذلك هو الأصل في التوجيه الأخلاقي للبسملة، والإنسان يتخلق بذلك أو لا فذلك شأنه.

2. البسملة تجعل الإنسان ربانياً، يشهد صفات الله في خلقه، إذ كل الموجودات بالله وجودها.

3. تضمنت البسملة صفات، الجلال والجمال والكمال، فالله هو الاسم العَلَم، وهذا الاسم يتضمن جميع الأسماء والصفات، فهو الاسم الأعظم، ثم اشتق من الرحمة اسمين: الرحمن والرحيم، رحمن بجلال النِّعَم ورحيم بدقائقها، رحمن بالكائنات كلها، ورحيم بالمؤمنين... إلى غير ذلك مما قيل في معانيهما.

4ـ تكرار الشيء يصيِّر ذلك الشيء عادة مُحْكَمة، فإذا كرر الإنسان البسملة وقد أدرك معاني الرحمن الرحيم فتصبح الرحمة خُلُقاً في نفسه، وبذلك يرحم الخلق أجمعين، وهذا ما أشار إليه البحث من خلال الكلام عن الرحمة المهداة والأسوة الحسنة النبي عليه الصلاة والسلام.

المصادروالمراجع:

القرآن الكريم

01. بخاري (محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري (ت 256هـ)، صحيح البخاري، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ببيروت، ط/1987م.

02. ترمذي (محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي (ت 279هـ)، سنن الترمذي، مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة، ط1975/2م.

03. **جوزية** (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت 751)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي ببيروت، ط3/ 1996م.

04. **رازي**، (محمد بن عمر أبو عبد الله فخر الدين الرازي (ت 606هـ)، لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات، عني بتصحيحه محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، المطبعة الشرقية بمصر، ط1/1323هـ.

05. **رازي**، (محمد بن عمر أبو عبد الله فخر الدين الرازي (ت 606هـ)، مفاتيح الغيب، دار الفكر بيروت: د/ط : د/ت .

06. **راغب** (أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم والدار الشامية بدمشق وبيروت، ط1/ د/ت.

07. **راغب** (أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 502هـ)، الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق الدكتور أبو اليزيد العجمي: دار الوفاء بالمنصورة: ط2: د/ت .

08. **زمخشري** (محمود بن عمر أبو القاسم جار الله الزمخشري (ت 528هـ) الكشاف، دار الكتاب العربي ببيروت، ط3/ د/ت.

09. **سعود** (محمد بن محمد أبو السعود العمادي(ت982هـ)) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي ببيروت، د/ط، د/ت.

10. **شعراوي** (محمد متولي الشعراوي) تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم بالقاهرة، د/ط، د/ت.

11. **طبري** (محمد بن جرير: (ت310هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر بيروت، 1984م .

12. **عاشور** (محمد الطاهر ابن عاشور التونسي)، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر بتونس، د/ط، د/ت.

13. **غزالي** (محمد بن محمد أبو حامد الغزالي (ت 505هـ)، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، الجفان والجابي قبرص، ط1/ 1987/1407.

14. **فارابي** (محمد بن محمد بن طَرْخَان (ت 339هـ)، آراء أهل المدينة الفاضلة: د اسم الناشر: د/ط: د/ت .

15. **فيروزآبادي** (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت 817هـ)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي بالقاهرة.

16. **قشيري** (عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت 465هـ)، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر، ط3.

17. **مسكويه** (أبو علي أحمد بن محمد(ت421هـ)، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، حققه قسطنطين زريق: نشر الجامعة الأمريكية ببيروت: 1966م .

مسلم (مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت 261هـ)، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ببيروت، د/ط، د/ت.

18. **منظور** (محمد بن مكرم جمال الدين ابن منظور(ت711هـ)، لسان العرب، دار صادر ببيروت: ط3/1414هـ.

19. **نووي** (أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت676هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ط2.